لقَدْ وَعَتْ أُذنَاكَ يا غُلام

في السنة الخامسة من الهجرة ، خرج الرسول ﷺ من المدينة لغزوة بني المصطلق من خزاعة، حيث بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث ابن أبي ضرار ـ وهو والد جويرية بنت الحارث زوج النبي صلوات الله عليه ـ.

فلقيهم الرسول ﷺ علىٰ ماء المريسيع ، وقتل من قتل ، وأسر بعضهم ، وتفرّقت جموعهم.

وبينما ازدحم الناس علىٰ الماء ، حصل تنافسٌ بين المهاجرين والأنصار ، فأراد المنافقون أن يستغلّوا هذه الحادثة ليوقعوا الخلاف بين صفوف المسلمين! وكان رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول جالساً مع رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم ، وهو غلامٌ صغير.

فقال ابن أبيّ ـ يعرّض بالمهاجرين ـ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ!

ثم التفت إلىٰ من حضر عنده من قومه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم في بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله، لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلىٰ غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشىٰ بذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالساً ، فقال: يا رسول الله ، مُر عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال الرسول ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟». ثم أذّن بالرحيل في ساعةٍ لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل في مثلها.

وحين سمع ابن أبيّ أن زيد بن أرقم قد أبلغ رسول الله ﷺ خبره وقوله ، مشىٰ إلىٰ الرسول ﷺ وأنكر ذلك ، وحلف أنه لم يقل شيئاً مما ذكره له زيد!.

ولما استقلّ الرسول ﷺ بسيره ، جاء أُسيد بن حضير وحيّاه بتحيّة النبوّة وسلّم عليه ، ثم قال: يا نبيّ الله ، لقد رحت في ساعة ما كنت تروح بمثلها؟ .

فقال الرسول ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» ، قال أسيد: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبيّ» ، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلىٰ المدينة ، ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ» ، قال أسيد: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز ، وأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨] .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ، أخذ النبي صلوات الله عليه بأذن زيد وقال: «لقد وعت أذناك يا غلام» ثم قال: «هذا الذي أوفىٰ الله بأذنيه»[1] .

ما في عباد الله مثلُ محمّد ... فمقامه المحمود يُعرف في غدِ
ولحوضه المورود أكرم مورد ... صلىٰ عليه الله غير مقيّدِ
وعليه من بركاته أنماها

* * *

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٥١٢ ، سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٠٣ .